إلى الألم..

عله يقبل هديتي فنصبح أحبة

فإن الأحبة غالبًا.. يفترقون!

حديث معه.. أنا الظل.

محمد كمال

بدوت من العدم، هكذا أخبرني فيما بعد.

وقال لي أيضًا، أن البرد هو من أيقظه، مع العلم أنه لم يكن يرغب في ذلك.. أن يستيقظ. لبرهة تسائل: هل هو الصيف أم الشتاء؟ وإن كان الشتاء، لماذا نمت ليلة أمس بدون غطاء؟ ولماذا نمت عاري الصدر هكذا؟ وإن كان الصيف.. لماذا أرتجف؟

نظر للنافذة. أخبرني. وجدها مفتوحة، هو الصيف إذًا. الشمس تغادر، مثلما اعتاد على مغادرة الأشياء، شعور بالخذلان انتابه، فسخر منه ومن ذاته. مكث طويلًا مستلقٍ على ظهره، يحملق في السقف ولا يراه، تسرب الظلام للغرفة في غفلة منه، ربما كان في استطاعته منعه لو كان يقظًا له. فكر في ذلك، ثم تذكر أنه منهكًا للقدر الذي يمنعه الآن من أن يمد يده لقنينة المياه فوق الكومود.. فابتسم بامتعاض.

لكنه اعتدل، نعم، وترك الفراش واتجه لزر الكهرباء، وبكبسة واحدة استحضرني. رأيته، طويل قليلًا ونحيف، مكفهر الملامح العذبة، قاتم النفس – هكذا شعرت – مثل ليلتنا هذه. تحركت معه وأمسكنا سويًا بكرسي، تركه لي وجلس أمامي على طرف فراشه، ثم بادرني وعينيه على النافذة:

- كلما نظرت إلى السماء، أدركت أن الأمر أكبر من أن تعيه عقولنا الصغيرة، بفكرها المحدود.

وقبل أن أفتح فمي قال:

- تظل لا تبالي بأمر الوحدة التي أنت فيها، إلى أن ترى السعادة البادية في عيون المحبين.

عيون المحبين! أين هم؟ وكيف يراهم؟ كدت أسأله، لكنه قال:

- لا أحد يحب فينا تقلباتنا، الرياح العاصفة التي حولتنا لها المواقف والتجارب، إنهم يحبوننا ونحن نسيم هادئ فقط.. لذلك، َمن لم يصمد أمام تياري المدمر الغاضب ويحاول إخماده أو التعايش معه، لن ينعم بنسيمي الدافئ الهادئ.

حرصت على أن أسبقه هذه المرة، لكني لم أفلح، حيث قال:

- إذا تخليت عن مبادئك ستصل للكثيرين. لكن تذكر؛ الكثيرون دائمًا على خطأ.

نظرت خلفي، خِلت أنه يحدث أحد غيري. وقبل أن أستدير نحوه قال:

- خرج وترك لافتة على الباب مكتوب عليها "سأعود قريبًا" فخدع بذلك الأشباح، التي ظلت تحوم حول منزله المهجور عشرات الأعوام من دون أن تجسر على الدخول.. بينما تسلل أحد البشر خلسة ونهب كل شيء فيه.

وهو ينطق كلمة "فيه" هذه، أسرعت وقلت:

- كان يعرف أن أحد الأعمدة الرئيسة التي تمنع انهيار البيت آيل للسقوط، وكان مندهشًا أشد الاندهاش لتماسكه مع ذلك. وفي اليوم الذي انهار البيت فيه، كانت دهشته لا توصف؛ فلقد رأى العامود صامدًا كما هو. فكر قليلاً، ثم هرع إلى ركن الفناء المشمس الذي تقضي فيه والدته النهار.. فوجدها ميتة.

ظننت كلماتي ستعجبه، فإذ بملامحه تكفهر أكثر، تناهى لسمعي صوت، كأن أحد الجيران يتشاجر مع عائلته، نظر ناحية الصوت، ثم لي، وقال:

- وهرع يعدو فاتحًا ذراعيه لاحتضان أول من يقابله، فقد فاق الحزن طاقته، ولأن ليس له أحد، احتضن شجرة على جانب الطريق كانت قد جفت أوراقها من العطش. وما هي إلّا دقائق ونضرت واخضوضرت من غزارة دمعه، فابتسم.. أخيرًا نفع الحزن في شيء.

لم أكن أرغب في الحديث، لكنه صمت، وطال صمته، فقلت:

- إن لم تتخل الشجرة عن أوراقها الجافة، ما اخضرت أبدًا.. بعض التخلي يُنقذ.

كانت ملامحه جامدة، ونظراته ضائعة، شعرت بخيبة الأمل؛ لم يبدو أنه تأثر بكلماتي.
أضفت والنجوم تتلألأ أمام عيني في الظلام حينما نظرت للسماء عبر النافذة:

- أقترح على رجال الشرطة، عندما يهموا باستنطاق متهم، أن يدعوه لليل.. فإنه خبير تعذيب.

التفت نحوي بسرعة أفزعتني وقال:

- بابتسامة مصطنعة، رافق صديقه الوحيد إلى محطة القطار ليغادره للأبد، أعجبت به موظفة التذاكر وانتظرت عودته لتحدثه. وأثناء عودته، كان الحزن قد بدل ملامحه.. فلم تتعرف عليه.

ليست نظرات تلك التي كان ينظر إلي بها، بل شعرت كأنها رصاصات تخترقني. وفي خضم فزعي، أضاف:

- نحن أقوياء، صامدون، سعداء، لا نحتاج أحد... لكن الليل يكذّب كل ذلك.

قلت:

- نحن لا نشتهي الطعام خلال الليل كما نتوهم؛ وأنما نشتهي راحة البال. لذلك نوجه أفكارنا نحوه، قبل أن توجهنا هي إلى ما يعذبنا.

- الليل. قال ثم صمت لدقائق مرت كالدهر، وآثرت الصمت، فقال بعد تنهيدة:

- في الليلة الظلماء يُفتقد البدر. أظن أنه يختفي خصيصًا لنشعر بوجوده في حياتنا ونُقدّر عطاؤه.. وكذلك هم بعض الأشخاص، لن يشعرهم بوجودنا سوى اختفائنا.

لكن يا صديقي.

كان ينظر لباب الغرفة، متى سمع كلمة صديقي نظر نحوي ورأيت الدهشة في عينيه.. والسعادة. وكأن الكلمة كان لها وقع خاص على سمعه وقلبه، ابتسم، وقال:

- الذين نحبهم جدًا، حين نحزن بسببهم، نحزن كثيرًا جدًا، ليس للسبب الذي أحزنونا من أجله؛ وأنما لأنهم هم الذين أحزنوننا، وكنا نحسبهم لن يتسببوا لنا في الحزن.

الذين نحبهم! فكرت أن أقول شيئًا عن هذا، لكني قلت:

- في مرحلة ما من العلاقة، تتبدل لديك أسباب الحب، من إعجاب بالشكل والأسلوب، إلى انتماء وخوف. حينما تتيقن أنك تنتمي له وينتمي لك، تشعر بالخوف، لا من الفراق فحسب، وأنما من أن شيء يحزنه.. وهذه أعلى درجات الحب.

***

- قال البحر لليل: أنت تجعلني موحش. فقال الليل: أنا أظهر الأشياء على حقيقتها فقط، بعدما تجّملها الشمس.

قال هو، فحدقت إليه طويلًا ثم قلت:

- بعدما تجاوز الخمسين من عمره، صار كلما نظر لوجهه المتجعد في المرآة، طرق الماضي بابه وأهداه ذكرى جميلة، ولأن الهدايا كانت جميلة جدًا لدرجة لم يتحملها قلبه الهش.. حطم المرآة.

قلت قاصدًا تلطيف الجو:

- كانت الساعة الخامسة مساءً، ننتظر قدوم الليل الذي ذهب النهار ليرسله لنا، عندما مرت هي على قريتنا فأنارتها. ومن لحظتها، فاتت ساعات كثيرة.. ولم يأت الليل.

ضحك، وهز رأسه ثم قال:

- حتى أن البحر، حينما يفقد عناق الشمس، يكن باردًا موحشًا.. ويُعتم.

ابتسمت، استطعت أن أسّيره معي على طريقي، قلت:

- كنت أشبه بعامود إنارة تآكل من الصدأ، وعطل مصباحه، في شارع ريفي موحش بعيد عن القرية، يحيط به من الجهتين أشجار المانجو العالية المتشابكة. ثم جاء عمال الصيانة وخلعونني من مكاني ليصلحونني ويضعونني في المدينة. هكذا كنت قبل أن ألتقي بكِ.. وبعد اللقاء.

قال:

- إحدى أمارات الحب؛ أن تكتئب بسببه.

قلت:

- قال لها: حتى لو أحببتي غيري لا تخرجيني من قلبك، هذا هذا العالم ينتظر خروجي فيحطمني.

قال:

- مثلما َمن يكرهك يظهر في وقت ضعفك، كذلك َمن يحبك.

قلت:

- بعضهم "أون لاين" في رخاءك، و"مستخدم فيس بوك" في شدتك.

ضحك وقال:

- لا شيء أسرع من الحب في بناء إنسان، أو هدمه.

ضحكت أيضًا، مع إن عبارته لا تُضحك، وتسائلت: لماذا حوارنا هكذا، كأننا لا نتحاور، بل كلانا يعبر عما يجول في عقله وقلبه. وبينما أحدث نفسي، قال:

- كان يحسد الرياح؛ لأنها تعرف طريقها.

كدت أسأله: مَن هو؟ لكنه قال:

- أظن أن الدموع، هي عصارة قلب حزين.

فقلت:

- كي لا نموت فرحًا.. وُجد الحزن.

قال:

- لا معنى لكلمات يقولها لك شخص، ليبرر بها تخليه عنك في شدتك.

قلت:

- الفكرة في الحب، هي إيجادَ من يشغلنا به عن ذواتنا.. وبذلك نتلهى عنّا، فنستشعر الراحة.

ضحك وقال:

- إنّ السعادة التي لا نجد من يشاركنا فيها تؤلمنا أكثر مما يفعل الحزن.

قلت:

- هل نخون الوحدة عندما نكون بصحبة الناس؟

فقال:

- بل نخون الناس بإيهامهم أننا حقًا بصحبتهم.

ابتسمت ونظرت في عينيه، هل تحدثنا أخيرًا مثل حديث البشر؟ سألته وأجاب حقًا؟ لاحظ دهشتي، وسعادتي، وأحس بي، فقال:

- لا أحد يستحق أن نحزن بسببه. هكذا نقول.. ثم نكتشف أن كثيرين يستحقون.

قلت:

- ثمة أشخاص غادرونا بالفعل، ولم نسمح لهم إلى الآن بالمغادرة.

قال:

- لم أجرب الموت من قبل، لكنني عشت الشعور ذاته في كل يوم شعرت فيه بالوحدة.

قلت:

- إني أرى وجهي في عينيك حزين،
رغم حرصي على الابتسامة كي لا أحزنك
الآن علمت أنك تعرفين الحقيقة،
ورغم حزنك علي.. تبتسمين.

قال:

- أخشى أنك ترين وجهك في عيوني حزين
رغم ابتسامتك لي
وتظنين أني بابتسامتي
لا أفهم حزنك الدفين!

مرة ثانية نتحاور مثل البشر. قلت:

- الصور تخبيء الكثير من الجمال؛ أكتشف ذلك في كل مرة أراها فيها.

ابتسم وقال:

- أنصت إلى قلبي بشفقة حين يدلف الليل وهو يقول متحدثًا عني: "هذا الفتى لا ينفك يعذبني، فإما أن يُدخل أحدهم إلي.. أو يمنع عني حلول الليل.

قلت:

- عرفت مما عرفت:
- أن الفراغ أشد خطورة على المؤمن من الشيطان.
وأن الذنب لا يخيف؛ بل الطريق المؤدي إليه.
وأن الاغترار بالعمل هو ذنب عظيم، يقود إلى ذنوب أعظم.
وأن الصديق الحقيقي هو من لا ينتظر منك مبررات؛ لأن من المفترض أن يكون هو أكثر مَن يفهمك.
وأن الحياة رائعة لولا الألم، وأن هذا بالتحديد ما يجعل لها معنى.
وأن الحب هو حزنك العميق على حزن إنسان آخر، وسعادتك العارمة لسعادته.. وهكذا تكن قد تخلصت من الانتشاء الذي يصيب بعض الناس جراء مصائب الآخرين، وشفيت من الحقد على السعداء. فإن الحب يعالج هذه الآفات.
وأن الآخرين هم السعادة والحزن، إن ركنت إليهم. وأنهم مجرد كائنات على الأرض، إن ركنت إلى الله.

صفق لي وقال:

- أحدهم لم يوجعه الفراق، بقدر ما أوجعته تلك النظرات الباردة في عيونهم.

آثرت الصمت، فقال:

- رغم الألم، كان يبتسم وهو يُضرب على ظهره؛ فلم يربت على ظهره أحد من قبل.

وقال أيضًا:

- منذ طرقت بابك وصددتني، وحرمت على أبوابي الأقفال؛ لمعرفتي بمرارة الصد.

قلت:

- مشكلتنا الدائمة ليست الحنين إلى الذين غادرونا؛ بل صدمتنا فيهم.

قال:

- من خلال علاقاتي بالغرباء، تمنيت لو أن الجميع غرباء.

قلت:

- قطع العلاقة أحيانًا يكون أفضل من الإبقاء عليها؛ فإن الجهد الذي نبذله من أجل الحفاظ عليها يتعب أكثر مما يتعب الفراق.

***

على حديث العلاقات، قال:

- العلاقة الآمنة، هي التي لا تحتاج فيها لطرح الأسئلة؛ حيث كل شيء واضح.

قلت:

- أن يوجعك الغياب الآن، أفضل من أن يوجعك التعلق.

قال:

- من المؤسف جدًا أن تكون طريقتنا لاصطياد العصفور، هي جعله يطمئن لنا.

قال أيضًا:

- بعض الناس يتعاملون معنا معاملة المصابيح؛ متى انطفأ نورنا استبدلونا بيسر، من دون أن يكلفون أنفسهم عناء السؤال عن ماذا حل بنا.

قلت:

- هناك ما هو أوجع من الفقد، أن تتمنى لو يرحل الأشخاص عنك، حتى يكون لشعورك بفقدانهم – وهم معك – مبرر.

قال:

- تعجبني زهرة الصبار؛ لا تسمح لأحد بالاقتراب منها إلّا وهو يعرف يقمتها.

قلت:

- غرباء ثم أقرباء ثم غرباء جدًا.. ملخص علاقاتنا ببعض الأشخاص.

قال:

- لم تحترق الشمعة لتضيء غرفة الأعمى وفاء له؛ وأنما لأن لا أحد ينتظرها.

قلت:

- لا يكتئب المسرح لأن العرض انتهى وغادر الناس؛ بل لأن الناس لم تأتِ له هو.

قال:

- قد يخدعك شخص ما بقربه الزائد منك.. فلا تراه بوضوح.

قلت:

- الانبهار الشديد بشخص ما كالضوء شديد السطوع؛ يحجب عنك الكثير.

قال:

- يجب أن تشعر بالخوف لا بالسعادة حينما تحب شخصًا حبًا كبيرًا؛ فبمقدار حبك له، سيكون شقاءك إذا جرحك.

وقال أيضًا:

- كلما كانت لهفة البدايات كبيرة، كان الجرح أكبر وأعمق.

قلت:

- من بين جميع البشر، تختار أحدهم بشعور جميل، ليترك في قلبك شعورًا بشعًا.

قال:

- البيوت لا تمنع أحد من الرحيل، الأبواب لا تقف في وجه أحد، الطرقات لا تعترض. كل شيء يسمح بالرحيل.. ما دامت القلوب سمحت.

قلت:

- من يخذل أحدهم لا يؤذيه وحده؛ بل كل الذين يحاولون الوصول لقلبه ويمنعهم أنه مخذول.

قال:

- من حسنات الوحدة: أن لا أحد سيكون معك، فيتركك، فتشعر بوحشة من دونه.

قلت:

- إن كان الكتمان يقتل، فإن البوح يقتل أيضًا؛ حينما يكون للشخص الخطأ.

قال:

- كما يستريح حطّاب تحت ظل شجرة ثم يقوم ويقطعها.. هكذا هو الخذلان.

شعرت بأني متعب، متعب النفس، فأشرت له بيدي أن أكمل، فقال:

- كان يكره مغيب الشمس؛ هذا أيضًا يشعره بالوحدة.. حينما يختفي ظله.
- لا يُقاس الحب بما نقدمه، بل بما نتنازل عنه ليستمر ذلك الحب.
- لا تؤخذ ببشاشة الوجوه؛ فأكثر الخدع براعة لا تكتمل إلّا بابتسامات.
- ولا تخدعنك ابتسامات البعض؛ فالسمك يبتسم والصنارة مغروزة في فمه.
- تتعاظم أوجاعك، عندما يستصغرها شخصك المفضل.

- لا يقاس الجرح بمدى عمقه، بل بمدى قرب المتسبب فيه.

قلت:

- نصبر ونتغافل ليس خوفًا على مغادرتهم؛ وأنما كي تقتنع قلوبنا.. فتطردهم ولا تحن.

وأضفت:

- مشكلة الخذلان: أنه يجعلك تحذر من أن تعطي قلبك كله.. حتى لمن يستحقه.
- مثل غصن شجرة ميت، نقطعه لينمو آخر مثمر مكانه.. يجب معاملة بعض العلاقات.
- نموت مرات عدة ونتكتم على الأمر، وفي المرة التي يتسرب فيها الخبر.. يدفنوننا.
- ليس الاحتواء أن يحتضنك أحدهم؛ بل أن يجنبك كل المشاعر التي تدعو للاحتضان.

قال:

- من المفارقة: أننا نتعلم أسوأ الدروس.. بأغلى الأثمان.
- لا فرق بين التسامح المبالغ فيه والقسوة؛ كلاهما يؤديان للوحدة في النهاية.
- لأننا كنا لهم دائمًا جدران صلبة، أداروا لنا ظهورهم.

قلت:

- لم تأت هذه الأيام ثقيلة هكذا لتوجعنا؛ بل لتضبط اتزاننا.. كما تفعل الجبال بالأرض.

قال:

- ليست كل الضربات مؤذية، فهناك ضربة تفقد المرء ذاكرته.. وأخرى ترجعها.

قلت:

- من الجيد أن جروح القلوب لا تُرى، وإلّا لبدونا مشوهين تمامًا من الداخل.

***

انقطعت الكهرباء فأظلمت الدنيا، وقد كان يريد قول عبارة فاستبدلها بأخرى لأني اختفيت مع الضوء. هكذا أخبرني في الصباح، وأنا إلى جانبه بعدما أظهرني ضوء النهار. وكانت

عبارته الأخرى: "كان الطائر يأنس بانعكاس صورته في ماء البحيرة، ولمّا جفت لم يمت عطشًا.. بل مات مِن الوحدة."

لكنه لم يكن طائر كي لا يعرف كيف يُفسر الأمور ويعيها فينصدم ثم يموت، كان يعرف أني سوف أظهر ثانية في الصباح، ولن أظهر فحسب؛ بل وسأكون إلى جانبه أينما كان. لذلك استلقى ثانية على فراشه وغط في النوم، وفي قلبه سعادة لم يعرفها منذ زمن، لأنني سأزوره غدًا باكرًا مع ظهور ضوء النهار، ولن أتركه إلّا إذا أراد هو، وصحبني للظلام.

أخبرني نهارها أنه كان يكره الظلام قبل حديثنا ليلة أمس، لكنه أصبح يكره جدًا جدًا بعدها.

"تمت"

عن الكلتب:

روائي مصري من محافظة الشرقية، صدرت له أربع روايات ورقية: دماء ملعونة – لولاها – تمثال الخزف – على سطح الجيران.

الصفحة الرسمية للكاتب على فيسبوك:

https://www.facebook.com/Writer.Mokamal?mibextid=2JQ9oc